الرثـــاء :

الرثاء : وهو بكاء الميت والتفجع عليه ، وإظهار اللوعة لفراقه ، والحزن لموته ، وعدّ خلاله الكريمة ، والإشادة بمناقبه وشمائله .

والرثاء من الفنون التي جودّ فيها الشعراء لأنه تعبير عن خلجات قلب حزين ، وفيه لوعة صادقة وحسرات حرى ، ولذلك فهو من الموضوعات القريبة من النفس ، لأن الرثاء الصادق تعبير مباشر قلما تشوبها الصنعة أو التكليف ، والحياة الجاهلية حياة حرب ودماء وغارات يسقط أثرها القتلى ، فيبكي الأهل والأصحاب قتلاهم ، ويثيرون ببكائهم دموع قبائلهم ويؤججون أحزانهم فيدفعونهم لشحذ سيوفهم استعداداً لجولة جديدة تطفأ نار غيظهم وتشفى أحقادهم بالفوز بثأرهم والظفر برؤوس أعدائهم .

أنواعـــــــه :

الرثاء على ثلاثة أنواع :

١. **الندب :** وهو بكاء الميت بألفاظ حزينة مؤلمة تستمطر الدموع من العيون وتكشف عن أسىً عميق ، ومثاله قول الخنساء في رثاء أخيها صخر :

قذىً بعينكِ أم بالعين عوّارُ	أم ذرفت أن خلت من أهلها الدارُ
كأن عيني لذكراه أذا خطرت	فيض يسيل على الحزيّن مدرارُ
فالعين تبكي على صخرٍ وحق لها	ودونه من جديد الأرض أستارُ
تبكي خناس وما تنفل ما عمرتْ	لها عليه رنين وهي مقتارُ
بكاء والهة ، ضلّت أليفتها	لها حنيان : إصغار وإكبارُ

٢. **التأبين :** وهو الرثاء الذي يتخذ شكل الثناء على الميت ، وذكر فضائله ، وتعداد محامده ، ويكون ذلك عند زيارتهم للقبور ، أو اجتماعهم في مجلس يعقد لذكرى الفقيد ، وكثيراً ما يُضفون على الميت جميع الفضائل والمثل العليا ،من الشجاعة والمروءة والنجدة والوفاء وحماية الجار والحلم والحزم والسماحة والسيادة ، وما إلى ذلك من الخصال النبيلة ، مثاله قول أوس بن حجرفي رثاء فضاله بن كلدة الأسدي :

أيتها النفس أجملي جزعا	إن الذي تحذرين قد وقعا
إن الذي جمع السماحة	والنجدة والحزم والقوى جمعا
الأ لمعي الذي يظن لك ال	ظن كأن قد رأى وقد سمعا
المخلف المتلف المرزّأ لم	يُمتع بضعف ولم يَمت طِبعَا

٣. **العزاء :** وهو الرثاء الذي يتجه إلى التفكر في رحلة الحياة ومصير الناس وحتمية الأقدار ونزول البلاء ، وضعف الإنسان أمام نوازل الدهر ومصائب الزمان ، فيلتمس في كل ذلك السلوى والصبر والرضا بما نزل به والاستسلام للقدر وقد عبرت الخنساء عن تعزيها بكثرة من نكبوا بأهلهم وكثرة الباكين من حولها ، أذ تقول :

فلولا كثرة الباكين حولي	على إخوانهم لقتلت نفسي
ولكن لا أزال أرى عجولا	ونائحة تنوحَ ليوم نحسٍ
هما كلتا هما تبكي أخاها	عشيةُ رزئه أو غب أمرِ
وما يبكين مثل أخي ولكن	اُسليّ النفس عنه بالتأسّي

وقد برعت الخنساء في الرثاء ، ولعله الفن الوحيد الذي أجادت فيه المرأة ولا شك أن المرأة أشد من الرجال حزناً وأرق عاطفة وأكثر جزعا وأعظم لوعة ، وطبيعتها أقرب إلى الرثاء والبكاء واللوعة والأسى ، ولكن المرأة مع كل ذلك لم تستطع أن تصور في رثائها ما تلاقيه من ألام مبرحة

على فقد أبنها أو زوجها أو أخيها ، فقلما تتحدث عن آلامها النفسية بأصالة وعمق ، وآثرت في رثائها البكاء والعويل ، وذكر الجوانب العمة من حياة القتيل ، وأكثرها يتعلق بالجوانب المادية ، فهو الحامي والكريم والشجاع وما إلى ذلك من فضائل المرثي ولذلك صار رثاء المرأة أشبه برثاء الرجال ، وقلما نجد في رثائها سمات تعبّر عن عاطفتها الأنثوية ، ولعل لسرعة بكاء المرأة وعويلها وجزعها أن جعل لها متنفساً لأحزانها ، فإذا أرادت التعبير لم تجد في صدرها ما تفصح به غير لغة الدموع ، أما الرجل فيكبت أحزانه ويتجلد ويستغرق في المصيبة والأسى المفجع ، فإذا أراد التعبير انفجرت همومه وأحزانه ، وصار الشعر متنفسه إلى الراحة من ثقل الهموم والأحزان .

ولكثرة نواحِ المرأة وبكائها ، صار شعرها يدور حول موضوعات واحدة لا يجاوزها ، تتصل بوصف الفراغ الذي تركه المرثي وتعداد فضائله ، فمعانيه تدور في إطار ضيق ، ولذلك قلما نجد في شعرها الحكمة والتأمل والنظر إلى فلسفة الحياة والمصير ، ونظرتها بشكل عام جزئية فردية .

ويلاحظ في قصائد الرثاء العامة وبخاصة القصائد الطويلة الجيدة أنها تبدأ بالحكمة والتفكر في الأيام وصروف الزمان ، وقلما تبدأ بالغزل ، بل يشينها أن تبدأ به فمواضع الحزن لا يليق بها التفكير بالمرأة والتشبيب بها ، ومن ذلك قصيدة دريد بن الصمّة في رثاء أخيه عبدالله :

أرث جديدُ الحبل من أم معبدِ بعاقبة اذ أخلفت كئل موعدِ

وقد التمسوا لدريد عذراً بأنه قال قصيد ته بعد أن أخذ ثأره وأدرك طلبته .